# المكابر السَّابع
## «أنا ربكم الأعلى»

لعلَّنا لو أردنا تصنيف خريجي المدرسة الشيطانية حسب اجتهادهم، وتحصيلهم، وتفوُّقهم في المكابرة والجحود، لوجدنا هذا المكابر هو المتفوِّق الأوَّل فيها وهو الجدير بتاج النجاح الأكبر الذي يخصصه إبليس اللَّعين لأتباعه وتلاميذه ومريديه.

مكابر أظهر بدون وجل جحده للخالق الرازق تبارك وتعالى، وأنكر وجود إلهٍ غيره «ما علمت لكم من إله غيري» وشطح في مكابرته حتى قال:

«أنا ربكم الأعلى» وقال متجرِّداً من الحكمة والعقل:

«وما رب العالمين؟»، وحينما واجهه النبي المرسل عليه السلام بالحجة بعد الحجة، والدليل بعد الدليل قال: ﴿**إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ**﴾ [الشعراء: 27]، وقال حين عجز عن الردِّ، وَجُوبِهَ بالحق المسكت له ولأمثاله: «لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين».

أرأيتم كيف يصبح المكابر كالحجر الأصمِّ الأبكم لا يفهم معاني الكلام الصحيح الصريح، ولا يستوعب دلالات الحجج الدامغات.

obeikandl.com

أبواب مسدودة أمام كلمة الحق، أقفلت بقفل المكابرة الذي لا مفتاح له إلاّ الرجوع إلى الحق، وأين هذا المفتاح من أهل المكابرة والغرور والكفر والضلال.

إنه المكابر الأضخم في باب المكابرة: «فرعون» الذي غرَّه ملكه وقوَّته، وخضوع الناس له وطول مدَّة ملكه، وتلاعب بعقله وقلبه أستاذه الأكبر في الضلال «الشيطان الرجيم»، فرمى به في حجج المكابرة والتكذيب، وأغرقه في أوحال الكفر والعصيان، ونفخه بالغرور القاتل حتى قال الكلمة التي يتحقق بها حلم إبليس الأعظم «أنا ربكم الأعلى».

لكأنني بمؤسس مدرسة المكابرة والجحود، ومنشئ مركز التمرد والعصيان «إبليس لعنه الله» يتعالى إحساساً بالانتصار على هذا الملك المغرور بضعفه، الضعيف بغروره، فرعون الذي قال: «أنا ربكم الأعلى»، يا لها من كلمة، ما أظنُّ إبليس إلا قد أقام من أجلها مهرجاناً شيطانياً ضخماً حضرهُ ملايين الشياطين الذين يكيدون لبني آدم ليل نهار.

لقد رأى فرعون دلائل وعجائب كانت جديرة بإعادته إلى الصواب لو أنه سلم من داء المكابرة والاغترار.

إن مجيء ذلك التابوت على سطح البحر تسوقه الأمواج وفي داخله ذلك الطفل الرَّضيع، يعد رسالة واضحة، فيها إعجاز واضح لو كان عقل فرعون سليماً من مكابرته وغروره وعناده.

وإنَّ نشـأة ذلك الرضيـع «موسى بن عـمران» عليـه السـلام في بيت عدوه وعدو قومه، وفي العام الذي أمر فيه فرعون بقتل المواليد الذكور من بني إسـرائيل، لدليل على أن هنـالك أسـراراً إلهيَّـة لا يعلمهـا إلا الخالق القادر الذي كفر به فرعون، وجحده، وادَّعى أنه هو الربُّ دونه.

ثم مـا جرى من تسلسل الأحداث التي برزت فيها شخصية موسى وقوة بدنه، وقتله دون قصد لرجل من قوم فرعون حينما وكزه بإصبعه فمات دفاعاً عن الاسرائيلي ثم هروبه إلى مدين، ثم عودته رسولاً إلى فـرعـون بعـد ذلك لسنوات إن ذلك كلَّه لرسـائل بيـان وبلاغ لو كـان فرعون يعقل ويعي.

ولو كـانت مرسـلات الوعي في عقله سليمة من العطب الذي حال بينها وبين سلامة الإرسال والاستقبال.

إنَّ فـرعون كان متعـاليـاً مكابراً، وكـان يرى أنه فوق البشـر لأن ملكه عريض، ولأن الأنهار تجري من تحته، وكان عنيفاً مع معارضيه، متكبراً على رجاله وحاشيته يقال: إنه كان إذا غضب على أحد صلبه في جذع النخلة حتى يموت، ويقـال:إنه كان يجعل لمن يغضب عليـه أربعة أوتاد يشد إليها يديه ورجليه ويعذِّبه أشدَّ العذاب.

**ما اسم فرعون يا ترى؟**

قيل هو الوليـد بن مصـعب، وقيل: قـابوس بن مـصعب، وقـد حكم مصـر كمـا تقول الروايات على مدى سبـعة وستين عـامـاً من 1279-1213 قبل الميلاد.

Obeikandl.com

سبعة وستون عاماً من الملك والتسلط جعلت هذا المكابر يعيش في سكرة المال والجاه والقوة وهوى النفس ونزغات الشيطان.

سكرات قاتلات ظلَّت تحيط بعقله وقلبه، وتسيطر على روحه ونفسه حتى أهلكته وأغرقته.

لقد ابتلى الله سبحانه وتعالى فرعون بالسنين العجاف، وبنقص الثمرات، ثم بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، إنها آيات مفصَّلات واضحات أظهرت عجز هذا المدعي للربوبية عن كشفها، ومع ذلك استمر في مكابرته واستمر أتباعه في تصديقه والخضوع له.

ولنا أن نتوقف قليلاً أمام هذه الآيات، ونوازن بينها وبين قدرات فرعون البشرية، وقدرات جيوشه وحشمه وخدمه ثم ننظرَ إلى ادعائه الربوبية، وإصراره على ذلك، وانسياق الآلاف من قومه الذي استخفَّهم فاتبعوه اتباع الذين لا يفكرون ولا يبصرون، إننا عند ذلك سندرك مدى الغفلة القاتلة التي جثمت على صدور هؤلاء القوم الذين لا يفقهون حديثاً.

زوج ماشطة بنت فرعون أدرك الحقيقة، وتأمل الموقف وعرف حقيقة الادعاء الكاذب في قول فرعون: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ**﴾ و ﴿**مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي**﴾.

بعد أن جاءت آيات الله البينات، ومعجزاتُهُ الواضحات.

أدرك زوج الماشطة حقيقة الضعف البشري الهائل أمام قوة الله وقدرته، فآمن بربه العظيم، وكفر بفرعون الحقير، وأمنت بالله زوجته ماشطة بنت فرعون، وكتما إيمانهما، ولكنَّ النور لا ينكتم، وضوءه

الساطع لا يخفى فبلغ فرعون إيمان الرجل، وتأكد من ذلك فأمر به فقتل بعنف وقسوة شهيداً ـ إن شاء الله ـ، وخلَّف زوجته المؤمنة تكتم إيمانها وخمسة أطفال صغاراً.

ماشطة بنت فرعون حرصت على الاستمرار في عملها، وكتم إيمانها بالله حرصاً على جلب القوت لأطفالها الخمسة.

ومرَّ بها على ذلك زمن، وهي تعيش في جنبات القصر ماشطة لابنة فرعون المدَّعي للربوبية، وهو لايعلم من أمرها شيئاً، ياله من إله كاذب، كيف يكون للناس ربَّاً أعلى، وهو عاجز عن كشف ما يجري داخل قصره؟!

وذات يوم سقط المشط من يد الماشطة وهي تمشط شعر بنت فرعون، فقالت: باسم ربي، فقالت لها بنت فرعون: تقصدين أبي؟ قالت:

بل ربي الله تعالى إلهي وإله أبيك وإلهك.

كلام واضح لم تستطع الماشطة أن تدفعه، وتصدَّ عن لسانها حلاوة النطق به.

كانت كلماتها صدمة عنيفة لقلب بنت المكابر، لأنه كان قلباً مسكوناً بالغفلة، مخموراً بسكرة الوجاهة والملك.

ويعلم فرعون بما قالت الماشطة، فيزداد عمىً على ما هو فيه من العمى، ولا يتساءل عن السبب الحقيقي، ولا يجد حوله من المطبلين له من يرشده إلى الحق.

obeikandi.com

أزبد وأرعد، وطلب الماشطة ليتأكد، وجيء بها إليه، فأدهشه ما رأى من ثباتها، ورباطة جأشها، واطمئنان قلبها.

وسمع منها الحقَّ الصريح، الذي يعني في فهمه السقيم «الكفر الصريح».

وهدد وتوعَّد، وطلب منها أن تنطق بكلمة الكفر، فأبت كلَّ الإباء، ووقفت على قمَّة يقينها الشمَّاء.

ولولا مكابرة فرعون وغفلته، لرأى ــ عن طريق الماشطة ــ نور الحق، واهتدى إلى سواء السبيل.

هنا هزيمة نكراء لإنسان مغرور يدَّعي ما لايتفق مع نقصه البشري، وهنا فضيحة كبرى لذلك الإله المزَّيف الذي لايملك من أمر العاملين في قصره شيئاً. وكانت الهزيمة الكبرى في هذا الموقف متمثلة في أمر فرعون بأن تعذَّب الماشطة وتقتل أشد وأنكى أنواع القتل.

وجيء بها وبأبنائها الخمسة، ونصب أمامها قدر كبير يغلي فيه الماء، والنار من تحته تشتعل وهدَّدها بإلقاء أبنائها في هذا القدر واحداً واحداً إن لم تعلن كفرها بالله عز وجل، وتنطق بإقرارها بألوهية فرعون.

كان في وسعها أن تتظاهر بما أراد لتنجو بنفسها وبأبنائها من الانصهار في ذلك الماء الذي يغلي، مع بقاء إيمانها الحقيقي في قلبها، لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أسرار القلوب ﴿**إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ**﴾ [النحل: 106].

ولكن جذوة الإيمان في قلب الماشطة كانت في أوج اشتعالها المضيء.

إنها تعيش ـ في تلك اللحظة ـ أحلى لحظات حياتها متعةً وراحة ضمير، وهي لحظة خاصة جداً تجعل الإنسان أكبر من كل تعذيب وألم.

وإنهزم فرعون المكابر شر هزيمة بعد أن نفذ حكم القتل الفظيع بإحراق أبناء الماشطة واحداً واحداً أمام عيني أمهم، ثم إلقائها في الماء المغليِّ بعدهم.

يقال: إنه سألها ماذا تتمنى قبل إلقائها في القدر، فقالت: أن تأمر بجمع عظامي مع عظام أولادي وأن تدفن في حفرة واحدة.

ويقال: إن رضيعها حينما أخذ ليلقى قبل أمه في القدر هزَّ قلبها الرقيق هزَّاً، وأصابها حزن جارف وهو يصرخ فطيَّب الله قلبها بأن أنطقه فقال: لا تخافي يا أمَّه فأنت على الحق، فهان عندها كل شيء.

**أين فرعون في هذه اللحظة؟**

إنه مدفون في أسوء حفرة من حفر المكابرة والغرور والهزيمة الهائلة عقلاً وروحاً.

**هل انتهى كلُّ شيء في حياة هذا المكابر العنيد؟**

كلاَّ، فالأيَّام حبلى بالأحداث.

وقد سبقت قصَّته مع الماشطة وزوجها وأبنائها مواقف وعظات كثيرة.

هناك في مدين عاش موسى عليه السلام عشر سنوات بعد هروبه من فرعون وقومه، عشر سنوات قضاها في رعي الغنم لذلك الشيخ الذي التقى به موسى بعد أن سقى لابنتيه.

**من ذلك الشيخ يا ترى؟**

قيل هو شعيب عليه السلام عاش عمراً طويلاً بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوَّج بابنته.

وقيل اسمه شعيب، وكان سيد ماء مدين، ولكنه ليس بشعيب النبي.

وقيل: هو ابن أخي شعيب عليه السلام.

وقيل: هو ابن عمه.

وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب.

وقيل: هو رجل اسمه «يثرون» وهو في كتب أهل الكتاب كاهن مدين، أي: كبيرها وعالمها.

وقيل: اسمه يثرون وهو ابن أخي شعيب عليه السلام.

المهم: أنَّ هذا الرجل قد آنس من ابنته إعجاباً بموسى وأمانته وقوته حين قالت:

﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: 26].

رأى في شخصية موسى ما يدلُّ على ذلك، فعرض عليه أن يزوِّجه بابنته مقابل عمله لديه ثماني سنوات، فإن أتمَّ عشراً فهي من باب التفضلُ منه.

ومضت السنوات العشر.

obeikandl.com

وعزم موسى على الرحيل، عائداً إلى مصر، ومعه أهله وكان يريد أن يعود متخفياً عن فرعون لزيارة أهله هناك وعاد، ويالها من عودة عظيمة ما كان يحسب لها موسى عليه السلام حساباً.

انطلق موسى مودعاً صهره، ومعه زوجته وأولاده منها والغنم التي اكتسبها في فترة عمله.

كان الليل مظلماً بارداً وتاه موسى وأهله في الطريق، فلم يهتدوا إلى الدرب المألوف، وجعل يوري زناده فلا يقدح، وبينما هو في خضم هذا الليل المدلهم إذا به يبصر ناراً بعيدة تتأجج في جانب جبل الطور الغربي، وتشير بعض الروايات إلى أن موسى رأى تلك النار وحده دون أهله، لأنها ليست ناراً حقيقية وإنما هي نور أراه الله موسى عليه السلام.

هنا قال مستبشراً لأهله:

﴿**إِنِّي آنَسْتُ نَاراً**﴾ [القصص: 29].

وعزم على الانطلاق إليها.

﴿**لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ**﴾ [القصص: 29].

وماذا جرى بعد ذلك؟!

تغيَّر الأمر كله، وبدأت رحلة النبوة والرسالة والدعوة من هناك.

﴿**وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾**﴾ [القصص: 44].

obeikandi.com

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: 30].

**تقول الروايات:**

كان موسى في واد اسمه «طوى»، فأُمِرَ ـ أولاً ـ بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً لتلك البقعة المباركة في تلك الليلة المباركة.

وتشير بعض روايات أهل الكتاب إلى أن موسى عليه السلام وضع يده على وجهه من شدَّة ذلك النور، مهابةً له وخوفاً على بصره.

هنا أوحى الله سبحانه وتعالى إلى عبده موسى ما أصبح به نبياً رسولاً.

وتأتي الدلائل القاطعة مباشرة.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه: 17].

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: 18].

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [طه: 19].

﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه: 20].

هنا تحولت طبائع الأشياء، لأن الله سبحانه وتعالى هو المتصرِّف فيها.

حية تسعى؟ إنه لأمرٌ مخيفٌ للإنسان.

ولكنَّها معجزة من المعجزات التي سيكون لها شأن عظيم، يقال: إن موسى هرب لَمَّا رآها حيَّة تسعى فأمره الله عز وجل أن يبسط يده ويأخذها بذنبها، فلما استمكن منها ارتدَّت عصا في يده.

obeikandi.com

وقد قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص: 31].

يقال: إنها صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصطك، وهي مع ذلك في سرعة حركة الجانّ، والجان نوع من الحيات ذوات الحركة السريعة جداً.

هنا هرب موسى، ولم يعقب، أي: لم يلتفت.

فناداه ربُّه:

﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص: 31].

**وماذا بعد؟!**

أمر الله موسى أن يدخل يده في جيبه، ثم أمره بنزعها فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضاً من غير سوء.

يالها من معجزة عظيمة!

لقد أصابت موسى الرَّهبة، ولهذا قال له ربه: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: 32].

قال ابن كثير: قيل: معناه: إذا خفتَّ فضع يدك على فؤادك حتى يسكن بذلك خوفك ويهدأ قلبك، وهذا العمل وإن كان هنا خاصّاً بموسى عليه السلام إلاَّ أنَّ بركة الإيمان به حقٌّ، ينفع ـ بإذن الله ـ من فعله على وجه الاقتداء، فإنَّ من يرهب أو يخاف، فيذكر الله ويضع يده على قلبه، يجد الهدوء والسكينة.

هنا تلقى موسى الأمر من ربِّه بالرسالة، والبلاغ والدعوة لفرعون وقومه.

يالها من رسالة عظيمة..!.

لقد كان موسى عازماً على الدخول متخفيّاً إلى مصر حتى لا يعلم بوجوده فرعون الذي سبق أن أصدر حكماً بقتله قبل هروبه إلى مدين.

والآن يبعثه الله نبياً إلى عدوه الأكبر فرعون الذي يدعي أنه إله من دون الله.

إنها رسالة عظمية حقاً.

ولهذا قال موسى لربه:

﴿**إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ**﴾ [القصص: 33].

هنا يعبر موسى عليه السلام عن قلبه وخوفه من ذلك العدوِّ المتسلط، ويتبع ذلك بطلب يطلبه من ربه ﴿**وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾**﴾ [القصص: 33].

لقد سأل موسى ربه العون والتأييد، فأجابه سبحانه إلى ما يريد:

﴿**سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ**﴾ [القصص: 35].

ياله من وعدٍ إلهي صادق أشاع في نفس موسى عليه السلام الاطمئنان.

obeikandl.com

فهنا وعد بالنصر والتأييد والغلبة، مع أن موسى مايزال في أول الطريق.

إنها قدرة الإله العظيم سبحانه وتعالى.

ستبدأ الآن رحلة البيان والبلاغ والدعوة مع المكابر المغرور المتسلط «فرعون».

إنها رحلة عجيبة برز فيها دور المكابرة الخطير في إهلاك صاحبها.

ذهب موسى ومعه أخوه هارون إلى عدوهما الألدِّ فرعون فبلَّغاهُ الرسالة بوضوح، وأخبراه أنهما رسولان من رب العالمين.

لقد كانت مفاجأة مذهلة لفرعون الذي بدأ بمعاتبة موسى على قتله لذلك الرجل من قوم فرعون من قبل، وبتذكيره بأنه تربَّى في بيت فرعون وبقي عنده سنوات عدَّة في راحة ورغد من العيش.

واعترف موسى لفرعون بما في بعض كلامه من الحق، وذكَّره بأنه قد عبَّد بني إسرائيل واستخدمهم سنوات طويلة، مقابل ما حصل من رعايته لموسى حينما نشأ في قصره.

بدأت هنا رحلة المعاناة مع المكابر العنيد.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: 23].

قال موسى:

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: 24].

obeikandl.com

هنا تحركت العنجهية والمكابرة، فالتفت إلى من حوله من رجاله الغافلين وتساءل:

﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: 25].

لكأني بهم يهزُّون رؤوسهم مندهشين في إشارة تعبِّر عن مشاركتهم لسيدهم في المفاجأة المذهلة.

هنا ألقى إليه موسى الجملة الأخرى المكملة للمعنى:

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الشعراء: 26].

لقد تجاوز الأمر الحدود بصورة لم يكن يتوقعها فرعون ولذلك قال:

﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: 27].

كأنه هنا يحاول أن يتماسك، وأن يؤكد لحاشيته وأتباعه أن الحقَّ فيما هم عليه، وأن موسى الذي يقول ما يسمعون الآن «مجنون» وما دام كذلك فهو لا ينطق بالحق.

محاولة من مكابر أراد بها أن يصرف هذه المعاني الجديدة عن أذهان أتباعه، ولولا أن أتباعه قد غرقوا في غفلتهم لا نتبهوا إلى الحق الواضح، خاصَّة بعد أن قال موسى مكملاً رسالته:

﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء: 28].

إنها حقائق ناصعة، وحجج دامغة، وظواهر كونية شاهدة بأن الله هو الإله الحقّ.

obeikandl.com

ولكنَّ مكابرة فرعون ما تزال واقفة أمامه كأنها حائط عظيم من الظلام إلبهيم.

لقد صرف ذهنه عن تلك الحقائق كلِّها، وبدأ يتحدث بمنطق المكابر المغرور:

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء: 29].

تهديد ووعيد، هي أدوات الطغاة المكابرين التي يغطُّون بها عجزهم وضعفهم البشريّ.

لقد ضاق ذهن فرعون المكابر عن إدراك الحقائق الكبرى التي ذكرها موسى له:

1- رب السماوات والأرض وما بينهما.

2- ربكم ورب آبائكم الأولين.

3- رب المشرق والمغرب وما بينهما.

إنه صغير العقل، ضعيف التفكير، أعمى البصيرة، وما دام كذلك فسوف يأخذه موسى عليه السلام على قدر عقله وفهمه الصغيرين.

قال له موسى عليه السلام:

﴿قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشعراء: 30].

ليس هنالك شيء مبين أعظم من خلق السماوات والأرض والمشارق والمغارب والكون بما فيه والإنسان بما فيه. ولكنَّ المكابرين من البشر يحتاجون إلى أدلّة محسوسة تناسب عقولهم الضعيفة.

ولهذا قال فرعون: ﴿فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: 30].

ياله من طاغية صغير العقل، ضعيف التفكير!!

في هذه اللحظة ألقى موسى عليه السلام عصاه أمام فرعون فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده من جيبه فإذا هي بيضاء يلمع بياضها العجيب كأنها فلقة من القمر تتلألأ.

تقول بعض الروايات: إن فرعون لما رأى العصا تتحول إلى ثعبان خاف وارتجف وحدث له إسهال عظيم احتاج معه إلى الخلاء أكثر من أربعين مرَّة.

سبحان الله العظيم!

أهذا إله كما يدَّعي؟!

ما تزال المكابرة عند فرعون حاجزاً، وما يزال ضعف أتباعه وذلُّهم عنده حاجزاً.

«لا فائدة»

اتهم فرعون موسى بالسحر، وتوعده بجمع أمهر السحرة وأقدرهم.

كل هذه الآيات الواضحة، والمعجزات البينات لم تخترق جدار المكابرة والغرور والجحود.

اتجه ذهن فرعون إلى تحطيم «سحر موسى»، فقد وقر في نفسه، وفي نفوس بطانته السيئة أن المسألة مسألة سحر وشعوذة، ولو كان يفكر بطريقة سليمة لعلم أنَّ ما حدث ويحدث لموسى منذ إلقائه في

obeikandi.com

التابوت وإلقائه في اليم ، وتربيته في بيت فرعون وهو عنه غافل، إلى مجيئه نبياً رسولاً، إنما هو معجزات واضحات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ولو فكر رجال فرعون وخاصَّته بطريقة سليمة لانكشف لهم الأمر بجلاء، فها هو ذا فرعونهم الطاغية لا يستطيع أن يمسَّ موسى بسوء، ولايأمر بقتله، مع أنه يدعي القدرة على كل شيء، وإنَّ في هذا لدليلاً للعقلاء على أنَّ الأمر أكبر من فرعون، وأعظم من ملكه وطغيانه ومكابرته.

إنه أمر الوعد الإلهي الكريم لموسى وأخيه هارون

﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: 35].

﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: 35].

المسألة هنا محسومة، ولكنها معلقة في عقول ونفوس الضالين.

جمع فرعون السحرة من كل مكان، فيا لهذا الإله الزَّائف الذي يحتاج إلى السحرة لتنفيذه ما يريد!

وما أعظم حلم الله عز وجل على هذا الجاحد العنيد!!

اجتمع السحرة في صورة مهيبة مخيفة، اجتمعوا ليهزموا سحر موسى في زعم فرعون.

كم كان عددهم؟

روايات متعددة يجنح بعضها إلى المبالغة، فقد قيل: إن عددهم كان ثمانين ألفاً، وقيل سبعين ألفاً، وقيل إنه كان بضعة وثلاثين ألفاً، وقيل تسعة عشر ألفاً، وقيل خمسة عشر ألفاً.

وروي عن ابن عباس أنهم كانوا سبعين رجلاً، ولعلَّ هذا القول هو الأمثل والأقرب.

ليس المهم عدد السحرة، وإنما المهم النتيجة.

بَهْرَجٌ كاذب، ومظاهر زائفة، سحرة متمرسون في سحرهم، مجيدون لفنهم، فماذا صنعوا؟

﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: 116].

حبال وعصيٌّ تملأ الميدان تحوَّلت إلى ثعابين وحيَّات مخيفة جعلت موسى عليه السلام يوجس في نفسه خيفة مما يرى، ولأنَّه رسول من ربه فقد أوحى إليه سبحانه في اللحظة نفسها:

﴿لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ﴾ [طه: 68].

**ماالذي جرى بعد هذا التثبيت الإلهي؟**

ألقى موسى ـ بأمر ربه ـ عصاه، فإذا هي تلقف ما يأفكون، عصا موسى عليه السلام تحوَّلت كما أشار إلى ذلك الرواة إلى: حية عظيمة ذات قوائم، وعنق عظيم، وشكل هائل مزعج بحيث إن الناس انحازوا منها وهربوا سراعاً وتأخروا عن مكانها وأقبلت على كلِّ ما ألقوه فجعلت تبتلعه بسرعة هائلة أدهشت الناس.

أما أولئك السحرة فقد أيقنوا أن لامجال للشك في أنَّ الأمر فوق بهرجة السحر، إنه أمرٌ أكبر من أمور البشر، إنهم أمام معجزة إلهية لا سحر فيها ولاشعبذة ولا زور ولا بهتان.

هنا انكشفت عن عقولهم حجب الوهم، وزالت عن قلوبهم أستار الغفلة ورأوا موسى على حقيقته نبيّاً رسولاً.

فسجدوا لله رب العاليمن.

**ماذا فعل المكابر «فرعون» وزبانيته؟؟**

الجحود نفسه، والضلال نفسه، والمكابرة نفسها.

هذا موقف واضح تماماً، الأولى بالطاغية أن يدرك أبعاده وأن يسجد كما سجد السحرة، ومن يدري؟ ربما لو فعل ذلك لزاده الله تمكيناً في ملكه، مع ما يتحقق له من النجاة من عذاب يوم القيامة.

لكنَّ المكابرة لم تتزحزح عن نفس هذه الطاغية.

﴿**إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ**﴾ [الشعراء: 49].

سبحان الله ما أجهل هذا الإنسان وأشدَّ غفلته!.

ونسأل الله السلامة من هذا الفكر الأعوج الذي لا يستقيم أبداً.

هؤلاء سحرتك يافرعون، أنت الذي جمعتهم من كل مكان، لايعرفون موسى ولا يعرفهم، وأنت الذي اخترتهم لمهارتهم من بين آلاف السحرة، وأنت الذي جمعت لهم آلاف البشر ليشاهدوا معك هزيمة موسى.

فكيف تدَّعي أن موسى هو كبيرهم الذي علَّمهم السحر.

إنه الشقاء نسأل الله السلامة.

لقد رأى السحرة الحق الأبلج، وعميت عنه بصيرة فرعون وظل مسكوناً بوهم ألوهيته الزائفة، فاتخذ قراره المعتاد في مثل هذه الحالات.

﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [الأعراف: 124].

هذه هي حيلة المهزوم العاجز.

هذا هو منطق المكابر.

هذه هي لغة الغفلة والعناد.

أمَّا لغة المنتصر على هوى نفسه، ووساوس الشيطان.

لغةُ صاحب العقل والبصيرة، فهي لغة أخرى أسمى وأرقى. إنها اللغة التي حملت ذلك الإحساس العميق عند السحرة بعد أن رأوا شمس الحقيقة بلا حجاب.

﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: 70].

لغة قوية لا تعرف الضعف؛ لأن عقول من نطقوا بها قد تخلَّصت من قيود الأوهام، ولأن قلوبهم تحرَّرت من سيطرة الأهواء.

لقد استمرت لغتهم في رقيِّها حتى بعد التهديد والوعيد:

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾﴾ [طه: 72].

هنا يظهر الإيمان بجلاء، وتتحقَّق فرصة كبيرة لفرعون أن يراجع نفسه لو سلم من مكابرته وعناده.

هل نفذَّ فرعون حكمه فيهم؟

يقول ابن كثير في تاريخه:

الظاهر من هذه السياقات أنَّ فرعون لعنه الله صلبهم وعذبهم ـ رضي الله عنهم ـ.

قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير:

كانوا من أول النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة، ويؤيد هذا قولهم:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: 126].

**وماذا بعد هذا الدرس العظيم؟**

هل توقف المكابر وأتباعه عند هذا الحدِّ؟؟

كلاَّ..

بل جاء دور «الملأ من آل فرعون» أولئك الأتباع الذين استخفهم فرعون فاتبعوه.

الذين قال لهم: «أنا ربكم الأعلى» فهزوا رؤوسهم الذليلة موافقين.

الذين قال لهم: «ما علمت لكم من إله غيري» فأرخوا جباههم خاضعين.

obeikandl.com

تحرَّك هؤلاء بعد هذا الحدث العظيم، حدث هزيمتهم النكراء أمام الحق في ميدان عام رآه الناس جميعاً، حدثٍ إيمان سحرتهم إيماناً راسخاً كالجبال، حدثٍ ظهور الحق الذي جاء به موسى حتى غدا كالشمس تراها عيون الناس جميعاً.

لقد رأى رجال فرعون، وخاصَّته أنهم يقفون موقفاً خطيراً الآن.

وأنَّ موقف بني إسرائيل قد أخذ يقوى بظهور هذه الآيات البيِّنات على يد نبيّ الله موسى عليه السلام.

فلا بد من عمل شيء.

إنها المكابرة التي تمسك بتلابيب فرعون وتجرُّه إلى الهلاك جرّاً، وتمسك بتلابيب رجاله لتكمل مشهد مأساتهم الرَّهيب.

إنَّ الموقف العام عند هزيمة مكر فرعون وكيده يشير إلى أن الحق قد ظهر وبان، والباطل قد انكشف، وهذا موقف من مواقف مراجعة النفس، وفرصة من فرص اعتناق الحق لو كان فرعون ورجاله بمنجاةٍ من سيطرة روح المكابرة والعناد عليهم..!

أمَّا وهم ما يزالون في غمرة المكابرة، فقد جنحوا إلى زيادة الطغيان والعنف.

**كيف؟**

لقد قال الملأ من قوم فرعون وهم الأمراء والكبراء الذين أعمتهم مصالحهم ومناصبهم عن الحق: ﴿**أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ**﴾ [الأعراف: 127].

هنا توجَّه العزم إلى إبادة قوم بكاملهم، وهنا ظهر حجم المكابرة الضخم الذي لايمكن أن يسمح بوصول بصيص من ضوء الحكمة إلى عقول القوم.

إنه اقتراح بالإبادة، وقد وافق هوىً في نفس الطاغية فرعون الذي كان تحت ضغط الهزيمة النكراء التي مني بها، وتحت ضغط ذلك الهتاف الجماهيري الكبير لموسى عليه السلام بعد انتصاره على سحر فرعون وكيده ومكره؛ ولهذا كانت الاستجابة السريعة من فرعون:

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: 127].

سبحان الله العظيم! ما أعظم غفلة هذا المكابر! وما أعرض قفاه! وما أسوء طويِّته..!.

إنَّ جملة ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: 127] لتدلُّ على نفس مغلقة، وقلب جامدٍ لا يحسّ وعقل غافل لا يعي.

هزيمة وراء هزيمة تلحق بفرعون منذ ساق البحر ذلك التابوت حاملاً ذلك الرَّضيع إلى داره، ومع ذلك فهو ماض في مكابرته، مسرف في طغيانه.

ماذا قال موسى حينما بلغه خبر عزم فرعون على الإبادة الجماعية؟

قال: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128].

obeikandl.com

وقال: ﴿**عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف: 129].

إنَّ في كلام موسى عليه السلام ما يوحي بأنها المعركة الفاصلة التي ستكون نهايةَ المكابرين فيها.

إنَّ قوَّة فرعون المادية ما تزال قوَّة ضاربة، ولكنَّ ما جرى في ذلك الميدان العامِّ من التهام عصا موسى لما جاء به السحرة يشيع روح الاطمئنان في قلب موسى وهارون ومن آمن معهما.

لقد عزم الطاغية على ارتكاب جريمة القتل لموسى وقومه وأخذ يردد ما يردده كل طاغية من عبارات التضليل والادعاء والتظاهر بالإصلاح، والكذب الصُّراح.

﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾**﴾ [غافر: 26].

سبحانك يا ربي، هذا بهتان عظيم، وادعاء كاذب لايصدقه عاقل ولاجاهل.

ولكنَّ المكابرين هكذا يتحدثون ، وهم يعلمون أن قولهم غير صحيح، وأن الناس العقلاء يفهمون أنهم يكذبون، ولكنهم مع ذلك يدَّعون ويتحدثون، ومن حاول أن يقول كلمة الحق من الناس لقي من ظلمهم واعتدائهم ما لا يخطر له على بال.

هكذا تكون أبواق الباطل كاذبة خادعة.

obeikandi.com

﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ [غافر: 26].

يالها من جملة مشحونة بالتضليل!

يقول ابن كثير: ولهذا يقول الناس على سبيل التهكُّم والسخرية «صار فرعون مذكِّراً ومرشداً».

المكابرة هنا تجاوزت الحدود، والظلم هنا يبحلق في موسى بعينين من لهب حارق ولهذا قال موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: 27].

هنا لجوء إلى الله العليِّ القدير الذي يقصم بقوَّته ظهور الجبابرة والطغاة.

لقد تجاوز موقف فرعون الحدود، وهذا ما جعل مؤمناً كان يخفي إيمانه وهو من آل فرعون، يقولها مجلجلة في وجه فرعون ﴿رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: 28].

سؤال صريح لا يقبل التأويل، سؤال مفاجئ لفرعون وأعوانه، سؤال لافت للنظر، هزَّ نفس فرعون، وأثار اهتمامه لأنه جاء من أحد أقاربه وأهل بيته.

يقول الرواة: إنَّ هذا المؤمن من آل فرعون هو ابن عمه، وأنَّ اسمه «شمعان»، وقيل إن اسمه «خير» وقيل إنه ابن فرعون الذي عرف فيما بعد بـ «أخناتون» وهو في رأي بعض المؤرخين «ذو القرنين» المذكور في سورة الكهف، في تفاصيل كثيرة ليس هذا مقام نقلها.

ولربما كان هذا القول راجحاً بدليل أن فرعون لم يعاقب هذا المؤمن من أهل بيته.

ومما يروى عن ابن عباس قوله:

إنه لم يؤمن من القبط بموسى عليه السلام إلا ثلاثة:

1- الذي جاء من أقصى المدينة يسعى لينذر موسى ويحذِّره من القتل، وينصحه بالهروب.

2- آسية امرأة فرعون.

3- مؤمن آل فرعون هذا الذي نصح فرعون هذه النصيحة لقد قال «مؤمن آل فرعون» قولته الواضحة، واستخدم أسلوب الترغيب والترهيب:

﴿**يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا**﴾ [غافر: 29].

سؤال واضح، وموعظة ذات قيمة كبيرة عند من يعي.

أما المكابر فرعون فقد أغلق الباب مباشرة أمام هذا المؤمن من أهله قائلاً: ﴿**مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾ [غافر: 29].

عبارة مغلقة تماماً، مظلمة تماماً، متغطرسة تماماً؛ أيّ سبيل للرشاد يهدي إليه فرعون؟؟

سؤال يشتعل في ثياب الطاغية ليحرق زيفه وكذبه، هكذا تقوم الحجج الدامغات على فرعون وهو سادر في غفلته؛ غارق في مكابرته.

obeikandi.com

إنه يقترب بنفسه من سوء عاقبته، ويستدني بمكابرته هلاكه ولحظة نهايته.

لقد زاد تخبُّط فرعون، وفقد توازنه وطلب من وزيره المكابر هامان أن يبني له صرحاً طويلاً لعله يرى من قمته إله موسى الذي يدعيه، وسواءٌ أكان جاداً أم ساخراً من موسى بهذا القول، فإنه قول يدل على الانغلاق.

**وماذا بعدُ في هذه الرحلة العجيبة؟!**

لقد زاد الله سبحانه وتعالى حججاً وبراهين وآيات أخرى لعلَّه يستيقظ ويثوب إلى رشده.

ونقول: سبحان الله العظيم، ما أوسع حِلْمَهُ، وما أعظم رحمته بعباده.

لقد ذهبت نصيحة «مؤمن آل فرعون» أدراج الرياح، فجاءت آيات متعاقبات:

1- **الطوفان**: أمطار غزيرة، وفيضانات أتلفت الزروع والثمار، حتى إذا خرَّبت الديار لجأ قوم فرعون إلى موسى يطلبون منه أن يدعو الله لكشف ما حصل، ويعدونه بالتوبة، فيدعو الله سبحانه، وتتكشف الغمَّة ولا يتوبون.

2- **الجراد**: حيث جاءهم أفواجاً سدّت عليهم الأفق فلم يترك لهم زرعاً ولا ثمرا فطلبوا من موسى الدعاء ووعدوه بالاتباع، فلما دعا وانكشف البلاء أعلنوا إِصرارهم على كفرهم.

3- **القمَّل:** قيل هو السوس الذي يخرج من الحبوب، وقيل هو الجراد الصغير الذي لا أجنحة له، وقيل هو دوابٌّ سود صغار، وقيل هي البراغيث، وقيل هو القَمْلُ المعروف الذي ينتشر في شعر الرأس. ومما يروى أن موسى عليه السلام قد أمر من ربه أن يمشي إلى كثيب من الرمل، وأن يضربه بعصاه، فتحول قُمَّلاً وانثال على قوم فرعون حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم؛ وعند ذلك طلبوا من موسى الدعاء ووعدوه بالاتباع فدعا وأجاب الله دعوته، ثم نكثوا عهدهم.

4- **الضفادع:** تكاثرت عليهم حتى كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم، حتى إن أحدهم إذا فتح فمه لطعام أو شراب سقطت في فيه ضفدعة من تلك الضفادع فطلبوا من موسى الدعاء فدعا وانكشف البلاء وأصرُّوا على عنادهم.

5- **الدَّم:** حيث مازج كلَّ ما يشربون فلا يستقون ماءً إلا وجدوه دماً خالصاً؛ يحدث ذلك لقوم فرعون ولايحدث لموسى وقومه، فلما اشتد عليهم الأمر طلبوا الدعاء من موسى، فدعا، فانكشف البلاء وأصرُّوا على ضلالهم.

إن هذه الآيات والدلائل المعجزات لكافية تماماً، بل إنَّ واحدة منها تكفي لبيان الحق، وقد اقتضت إرادة الله عز وجل أن تأتيهم هذه الدلائل لتؤكد للناس مرّة بعد أخرى عجز فرعون، وبطلان ادعائه الربوبية، فلو كان إلهاً قادراً كما يدعي لما وقف عاجزاً عجزاً تاماً أمام كلِّ آية أيَّد الله بها موسى عليه السلام.

لقد أكدت المواقف المكابرة من فرعون وقومه بعد هذه الآيات كلِّها، أنهم في حالة من الجحود والكفر والضلال لا دواء لها، وأنَّ قلوبهم قد أصبحت أقسى من الحجارة؛ فما عاد فيها للموعظة مكان.

إنها المكابرة التي لا مجال معها لوعي ولا مكان فيها لتذكير؛ فماذا بعد هذا كلّه؟؟

لقد تأمَّل موسى شأن هذا المكابر وقومه فرأى منهم إيغالاً في المكابرة، وهي مبالغة في العصيان، مع ما آتاهُم الله من النعم، والقوة، والأموال والأولاد.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: 88].

قال المفسرون: هذه دعوة عظيمة دعا بها كليم الله موسى على عدو الله فرعون غضباً لله عليه لتكبره عن اتباع الحق وصدِّه عن سبيل الله ومعاندته وعتوِّه برغم كل ما جاءه من الآيات والنذر والمعجزات.

دعوة من موسى وافقت باباً مفتوحاً، فأوحى الله إلى نبيه أنَّ هذه الدعوة قد أجيبت، وأنَّ فرعون وقومه قد استحقوا النهاية اللائقة بأمثالهم، كما استجاب الله سبحانه وتعالى من قبل لنبيِّهِ نوح عليه السلام حينما تمادى قومه في ضلالهم فدعا عليهم.

**كيف كانت النهاية؟!**

لقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن عبده الآبق المكابر فرعون بأنه قد علا في الأرض بغير الحق وتجبر فيها. وبأنه قد أسرف في ضلاله وتجاوز الحدَّ.

وبأنه قد قابل كل الدلائل والمعجزات بالجحود والنكران.

وهنا لابد من الجزاء.

بدأت نهاية الطاغية، بتوجيه من الله إلى نبيه موسى عليه السلام.

﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾**﴾ [يونس: 87].

قال المفسرون: إنَّ هذا أمر من الله إلى موسى وأخيه بأن يتخذا لقومهما بيوتاً متميزة منحازة عن بيوت القبط قوم فرعون ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أمرهم الله به، لأنهم إذا انحازوا عن قوم فرعون استطاعوا معرفة بيوتهم، وتمكنوا من الاجتماع حينما يأمرهم الله بالرحيل في أسرع وقت ممكن، كما أمرهم بأن يستعينوا بإقامة الصلاة والصبر حتى يأتي الفرج.

**قال ابن كثير في تاريخه:**

استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج إلى عيد لهم، فأذن لهم وهو كاره، ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له، وقد كان ذلك مكيدة منهم ليخرجوا وليتخلصوا من فرعون وقد أمرهم الله أن يستعيروا

حلياً من قوم فرعون لاستعمالها في عيدهم فأعاروهم شيئاً كثيراً، فخرج بنو إسرائيل في ليل بهيم وانطلقوا طالبين بلاد الشام فبلغ ذلك الخبر فرعون، فاشتد غضبه وأمر بتجهيز جيش عظيم ليلحقهم ويسحقهم .

هنا نزل القضاء المبرم ولهذا عميت البصيرة الفرعونية تماماً، فما عاد يفكر في الأمر تفكيراً سليماً.

إن مكابرته جعلته يعيش غيبوبة الاحتقار لبني إسرائيل، ومنعته من استذكار كل الآيات والمعجزات التي جاء بها موسى، ولو فكَّر فرعون تفكيراً سليماً لأدرك أن موسى منصور من ربِّه، ممنوع منه، ولو لم يكن كذلك لتمكن فرعون أن يقتله من قبل.

لقد انطلق فرعون بجيشه العظيم كالذي أصابه الجنون فلحق بموسى وقومه عند شروق الشمس، وتراءى الجمعان وتقابل الجيشان، وزال كل شك من النفوس، وأصبح كلّ من الفريقين أمام حقيقة كبرى لمعركة كبرى لا مناص منها.

هنا قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿**إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**﴾ [الشعراء: 61].

فالبحر أمامهم، وجيش فرعون العرمرم خلفهم، وصورة جبروت فرعون وظلمه على مدى سنوات طويلة تسيطر على عقولهم فقالوها عالية بها أصواتهم: ﴿**إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**﴾ [الشعراء: 61].

هذا كلام البشر بمقاييسهم المادية.

أما كلام النبي المرسل موسى عليه السلام فقد جاء مناقضاً لما قالوه: ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 62].

هكذا تتجلَّى النهايات العظيمة: فرعون وجيشه يتمّيزونَ غيظاً ويتجهزون للانقضاض على بني اسرائيل والتهامهم، وقوم موسى في وجلهم وخوفهم، وموسى ومعه أخوه هارون عليهما السلام، ومعهما مؤمن آل فرعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينظرون إلى البحر وإلى جيش فرعون وفي قلوبهم اطمئنان إلى تحقق وعد الله «قد أجيبت دعوتكما».

كان موسى واقفاً أمام البحر في موقع لم يحد عنه قائلاً: من ها هنا أمرت، ومعه أخوه هارون ويوشع بن نون عليهم السلام جميعاً.

وكان مؤمن آل فرعون يحاول أن يقتحم بفرسه البحر ويقول لموسى: يا نبيَّ الله أهاهنا أمرك الله؟ فيقول موسى: نعم.

ظلّ الأمر على هذه الحال وقد دنا أوَّل جيش فرعون من المكان، وبلغت قلوبُ القوم الحناجرَ، هنا أوحى الله عز وجل إلى موسى: «أن اضرب بعصاك البحر».

يالها من عصا عجيبة قامت بدورها الكبير منذ أن بدأ الوحي إلى موسى عليه السلام، وستظل تقوم بأدوار جليلة إلى أن يفارق موسى الحياة.

انفلق البحر اثنتي عشرة طريقاً، وأصبح ماء البحر قائماً مثل الجبال مكفوفاً صلباً بقدرة الله عز وجل.

انطلق بنو إسرائيل في طرقات البحر اليابسة وفرعون وقومه ينظرون إليهم فاغري الأفواه، مشدوهين لا يستطيعون أن يقولوا كلمة واحدة.

**أليس هذا مقام موعظة عظيمة؟**

ألم يكن بوسع فرعون أن يصرخ بها مدوية أمام هذا الحدث العظيم:

«آمنت بالله».

بلى، كان بإمكانه ذلك لولا حاجز المكابرة.

قال الرواة: إنه التفت إلى قومه فقال مكابراً كاذباً: أرأيتم كيف انفلق البحر حتى ألحق بهؤلاء العصاة؟! وكأني برؤوس الغافلين الذين معه تهتز موافقة له في دعواه.

لقد كان فرعون موقناً في دخيلة نفسه أنه أمام معجزة عظيمة، ولكنَّ مكابرته حالت دون اعترافه بالحق.

لقد تردَّد وتهيَّب من سلوك تلك الطرق العجيبة في البحر ولكن قدر الله سبحانه وتعالى إذا نزل لا يمكن أن يُرَدَّ .

فمما يروى أن جبريل نزل بفرس مرَّ بها أمام حصان فرعون فحمحم الحصان وانطلق وراءها داخلاً في طرقات البحر، وفرعون لا يريد، لقد دخل المكابر ودخل معه جيشه العرمرم حتى إذا استقروا في طرقات البحر أمر الله البحر أن يعود إلى طبيعته الأولى.

عاد البحر كما كان فطمس معالم جيش عظيم.

سبحانك يا عظيم.

**ماذا جرى للمكابر فرعون؟؟**

لما رأى الموت الحقيقي وعلم أنه غارق لا محالة قال: ﴿آمَنتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 90].

أرأيتم أيها الأحبة؟ تأمَّلوا هذه الكلمة التي قالها فرعون في هذا المقام، إنها الكلمة التي كان يجب عليه أن يقولها من أوَّل لقاء له بموسى عليه السلام.

لقد جنت عليه مكابرته، فتأخرت كلمة النجاة إلى الوقت الذي لم يعد لها فيه قيمة.

ولهذا قال الله سبحانه وتعالى له:

﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: 91].

**سؤال لا جواب له عند فرعون المكابر العنيد، وكيف يجيب وهو من الغارقين؟!**

كان بنو إسرائيل في حالة ذهول وهم ينظرون إلى هذه المعجزة العظيمة، ويقال: إنهم لم يصدقوا أن فرعون قد غرق ومات بسبب ما عانوا من طغيانه الطويل.

لكأنني بهم في هذا المقام يتذكرون قولهم لموسى قبل انفلاق البحر وعبوره:

﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: 61].

فيخجلون من أنفسهم ومن موسى، ومن رب العالمين:

أما موسى فهو في أسمى حالات خضوعه لربه العظيم الجليل: ألم يقل في أحلك المواقف:

﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 62].

وهو بذلك في أرقى حالات شعوره بالنصر المبين.

مات فرعون.

مات المكابر العنيد..

مات الذي قال: أنا ربكم الأعلى.

نعم لقد مات وانتهى، وحتى يكون موته ونهايته عبرة للناس فقد طفا جسده فوق الماء.

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس: 92].

في لحظة قصيرة تغيَّرت المعالم، واختلفت المقاييس، وأمام الجموع البشرية التي كانت مستضعفة من فرعون، انتهت حكاية كانت كابوساً جاثماً على صدر مصر وما حولها، انتهت مملكة عظيمة كان لها صيتها، انتهى جيش جرَّار كانت له صولته في البلاد.

**أين الأنهار التي كانت تجري من تحت فرعون؟**

**أين الكرسي المرصَّع بالجواهر الذي كان يجلس عليه؟**

**أين الأتباع الذين كانوا يطيعونه في باطله دون تردُّد أو اعتراض؟**

كلُّ ذلك ـ انتهى ـ في لحظة واحدة.

obeikandl.com

تلاشى أمام قدرة الله الذي يقول: «كن»

وإذا قال ـ سبحانه ـ: «كن» لأي شيءٍ «كان».

نهاية جاءت بعد إمهال طويل من خالق الكون الذي وسعت رحمته كلَّ شيء، وأحاط علمه بكل شيء وهو على كل شيء قدير.

### وقفة مع مؤمن آل فرعون:

في كتابٍ يسمى «فك أسرار ذي القرنين ويأجوج ومأجوج» أشار الباحث «حمدي بن حمزة أبو زيد» إلى أن مجموعة من الدلائل والمواقف تشير إلى أنَّ مؤمن آل فرعون الذي وقف مع موسى ونافح عنه في قصر فرعون، إنما هو «أخناتون» ابن فرعون نفسه، الذي كان اسمه «امنحوتب الرابع» وهوابن «امنحوتب الثالث» الملك الفرعوني الطاغية، وطرح مؤلف الكتاب السابق الأستاذ «حمدي» عدداً من الافتراضات التي بناها على دراسات ومتابعات، وأسفارٍ متعددة، رأى أنها ترجح ما ذهب إليه من أن «أخناتون» هو مؤمن آل فرعون المذكور في القرآن، وأنه ابن فرعون الذي أغرقه الله مع جنده بعد رحلة طويلة من العناد والمكابرة، بل إن الكاتب ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فأشار إلى أن العلاقة قد نشأت بين موسى وأخناتون في قصر فرعون الذي نشأ فيه موسى وترعرع، وتوطدت بينهما العلاقة، وبناءً على ذلك رجَّح الكاتب أن الذي أخبر موسى بعد أن قتل القبطي الذي كان في شجار مع رجل من بني اسرائيل فوكزه موسى فقضى عليه،

إنما هو أخناتون نفسه، إما أنَّه أسرع إلى موسى وأخبره أن القوم يريدون قتله، وإما أنه أرسل أحد الثقات من رجاله ليخبر موسى، فهرب عليه السلام إلى مدين.

وحينما عاد موسى رسولاً إلى فرعون كان أَخناتون على معرفة سابقة به، فآمن بما جاء به سرّاً، وبقي يكتم إيمانه حتى رأى المؤامرة الكبرى من فرعون وحاشيته على موسى وقومه بعد الآيات والمعجزات التي جاء بها، وفضح بها أمر فرعون، هنالك، قال «أخاتون»:

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: 28].

ومما رأى الكاتب «حمدي أبو زيد» أنَّ عدم إقدام فرعون على قتل هذا المؤمن من أهله، وعدم إقدام أحد من رجال فرعون ومستشاريه وحاشيته على تحريض فرعون على قتله، دليل على أن هذا المؤمن ذو قرابة خاصةٍ لفرعون، ولن تكون هذه المنزلة إلا للابن.

ثم يذهب الكاتب إلى أن أخناتون كان مع موسى حينما وقف بقومه أمام البحر، ومن ورائه جيش فرعون، وأنه عبر مع موسى البحر بعد أن صار رهْواً حين ضربه موسى بعصاه، وأنه عاد بعد هلاك والده فرعون وجنوده إلى مصر ليتولى الملك بعد أبيه وأنه كان مؤمناً، ونادى إلى الإيمان بالله، ولقي مواجهة عنيفة من الكهان وغيرهم، وأن جيشه كان ضعيفاً بعد أن أغرق الله سبحانه وتعالى معظم الجيش الذي كان مع والده، وأنه رحل بعد سنوات إلى جهات عديدة، فهو «ذو القرنين»

الذي وردت قصته في سورة الكهف، وقد بقي في الصين بعد بناء الرَّدم بين السدين دون يأجوج ومأجوج، وأصبح ملكاً متوجاً فيها، وقد توارث الملك عدد غير قليل من أبنائه في الصين.

وذكر المؤلف عدداً من الأخبار والمشاهدات المثيرة يمكن للقارئ الكريم والقارئة الكريمة أن يعودوا إليها في الكتاب المذكور سابقاً؛ ونقول:

**كم في الكون من أسرار لا يعلمها إلاَّ الله**

obeikandl.com